رأيك الخاص هو نواة الرأى العام

للأستاذ عريان يوسف سعد

قال لى صديق" لقد أصبت بكلمتك التى كتبتها عن الهجرة الى شمال الدلتا حلا لمشكلة ازدحام جنوب الدلتا واقفار شمالها." ثم أفاض فى وصفه لتلك المشكلة ولكننى قطعت عليه الحديث قائلا :

"لِمَ لاتكتب مانقوله وترسل كلمتك لمجلة الشؤون الاجتماعية"؟ انك إن فعلت فقد سجلت رأيك الخاص ولو فعل ذلك كل من قرأ تلك الكلمة لوضع لتحرير المجلة أن كلمتى لم تعبر عن رأى كاتبها وحده وإنما هى صدى للرأى العام فيكون لها قيمة ويكون لها أثر، فالرأى الذى يدلى به كاتب واحد لا يعدو أن يكون رأيا خاصا ولكن لو اتضح أن ذلك الرأى ليس رأى الكاتب وحده ، لكان لكلمته شأن آخر .

هذه الكلمة كتبها رجل واحد رأيه مهما كان صائبا لا وزن له الا مثل مالرأى الواحد من وزن يختلف باختلاف ما لصاحبه من مركز أدبى أو اجتماعى، ولكنه على كل حال رأى فرد لا أكثر ولا أقل .

ولكن لو تلقت المجلة من كل من رأى فيه حلا لمشكلة اجتماعية كلمة تؤيده وأصبح لدى المجلة من تلك الكلمات مجموعة قيمة تدل على أن كثرة القراء رأت ذلك الرأى لما أصبح ذلك المشروع الذى رميت اليه رأى فرد بل لأصبح مشروعا قد يجد من يضعه موضع التنفيذ .

كم من فكرة صائبة أدلى بها صاحبها الى جريدة أو مجلة لم تبرح الورق الذى سطرت عليه ولم تعد حيز السطور التى حملتها الى الرأى العام رغم إيمان الرأى العام بانها فكرة صائبة تحل مشكلا من مشاكلنا العويصة .

هذا الركود الذى يصيب الأفكار الصائبة التى يتعب الكتاب فى تحليلها فى مقالاتهم سببه أن القراء لا يعنون بتسجيل آرائهم الخاصة فى تلك الكلمات التى يقرأونها ويؤمنون بما فيها من مقترحات فيبقى الرأى العام هيولى كالدنيا قبل خلقها . موجودة غير موجودة فعناصرها كلها متوافرة ولكنها لم تتشكل ولم تأخذ صفة الأشياء الموجودة .

نعم الرأى العام رغم وجوده فى مصر لا يحس أحد بوجوده ورغم قوته لا يشعر أحد بهذه القوة لأن الآراء الخاصة التى تكونها لم تأخذ اتجاها تندفع فيه ولم تتحد فى ذلك الاتجاه حتى تؤثر فيما حولها إنما هى متناثرة مبعثرة كقطرات المطر التى لا تجمع فى جدول تسير فيه ماء وإنما تبقى حيث هى حتى تتبخر أو تشربها الرمال .

كذلك الآراء الخاصة فى مشروع أو فكرة إن بقيت فى رءوس أصحابها أو امتدت إلى اللسان فعبر عنها أصحابها لأصدقائهم وفى محيطهم .واكتفوا بذلك لم يكن لها رغم كثرتها أثر ورغم وجودها وجود حتى ينساها أصحابها و يبتلعها الزمن كما تتبخر قطرات المطر التى تبقى منعزلة متفرقة فتجف ولا يشعر بوجودها أحد .

الرأى الخاص الذى تراه فى فكرة تقرأ عنها فى مجلة وتحتفظ به لنفسك أو تشرحه لصديقك جزء من الرأى العام أو ذرة من ذراته .

ولكن إذا لم تتجمع الأجزاء فلا وجود للكل واذا لم تتماسك الذرات فلا وجود لما قد يتكون منها لو تجمعت ولو أرسلته إلى حيث يجب أن يرسل إلى صاحب الفكرة أو إلى الذى نشرها وفعل كل من رأى رأيك فعله وأرسل رأيه إذن لتجمع من الآراء الخاصة ما يقال له الرأى العام وهو ما يحترمه المجتمع ويخضع له الحكام والزعماء والساسة .

أترى الكهرباء وقوتها التى غمرت العالم وسمت بالانسانية وسلطت الانسان على المكان والزمان فأصبحت الدنيا كلها مسيرة ساعة للآراء والأفكار ينقلها البرق وأصبحت الدنيا كلها مسيرة يوم و بعض يوم لمن يريد أن يطوف بها ، هذه الكهرباء كانت موجودة أيام كان نقل الرسالة يستغرق أعواما وأيام كانت الرحلة إلى قطر مجاور تستغرق شهورا وأيام كان الطواف حول العالم مستحيلا ، نعم كانت الكهرباء موجودة أيام كان العالم هادئا ساكنا مظلما متقطع الأوصال .

كانت الكهرباء موجودة ولكن ذراتها كانت مبعثرة فى الفضاء كامنة فى معادنها فلم يظهر لها أثر فلما عرفت وجمعت نشأ تيارها فاستخدمه الانسان فى أغراضه فاذا هى نور ونار وتدرج فى ذلك الاستخدام من التلفون والتلغراف إلى الإذاعة اللاسلكية والتلغراف اللاسلكى ولا يزال التقدم يضطرد .

هذا مثل أسوقه لقوة الذرات التى تتجمع وتصبح قوة جارفة خارقة للعادة تحدث المعجزات .

ورأيك الخاص الذى تهمله ولا تبديه لمن يعنيه أمره له خطره لو أنه اتحد مع الآراء الخاصة التى يهملها أصحابها كما تهمل أنت رأيك هو ذرة الرأى العام .

رأيك الخاص فى فكرة صائبة لو احتفظت به لنفسك استصغارا لشأنه إذ تقول لنفسك فكرة صائبة وتنصرف لعملك أو للهوك وتسليتك ، رأيك الخاص هذا لو اعتنيت به وأرسلته لصاحب الفكرة أو ناشرها وتجمعت معه آراء القراء جميعا لما تركت الفكرة الصائبة تموت أو تفنى ، بل لهزها الرأى العام وأرساها قوية تندفع بقوته رغم كل معترض ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعترض الرأى العام وهو ذلك السلاح القوى الذى يغلب زعيما على زعيم و يسلط حزبا على سائر الأحزاب ؟

رأيك الخاص هو ذرة الكهرباء المدفونة حية فى معدنها لا قيمة لها ولكن يوم يجمع العلم شملها على مثيلاتها من الذرات تتحول تيارا يضيء ويحرق ويتكلم ويأتى بالعجب العجاب.

لقد عاشت ذرة الكهرباء أحقابا من الزمن لا أثر لها حتى تجمعت مع غيرها فنقلت العالم من حالة البداوة إلى ما نحن فيه من حضارة فهل يليق بعد هذا أن تهمل ذرة من نوع أقوى من ذرات الكهرباء تجمعها مع مثيلاتها يخلق تيارا أقوى من تيار الكهرباء ، هو تيار الرأى العام ! !

إن ما تنفقه من دقائق فى كتابة سطر واحد تؤيد فيه فكرة أعجبتك، وأن ملاليم قليلة تدفعها ثمن طابع البريد الذى ترسل به ذلك السطر الساحر الى الكاتب أو الناشر ليس وقتا ضائعا ولا مالا ضائعا ، نعم هى دقائق وملاليم ولكن آلاف الرسائل التى تصل مع رسالتك ستكون القوة الدافعة التى تحقق تلك الفكرة التى استصوبتها لأنها ستكون الرأى العام ، ذلك التيار الجارف الذى يعمل الزعماء على استرضائه ليظل ناصرا لهم فيحتفظون بنفوذهم ، تلك الدقائق وتلك الملاليم تفوق الثروة وتفوق النفوذ إذا أنفقها أصحاب الآراء الخاصة فى التعبير عن آرائهم وفى تكوين الرأى العام .

انى أظن بل أعتقد أن اليوم الذى تتلقى فيه الصحف والمجلات والكتاب سيلا من الآراء الخاصة فيما ينشر، هو اليوم الذى يصبح فيه الرأى العام فى مصر قوة جارفة يحسب حسابها أصحاب الصحف والمجلات ويعترون بها ويحسب حسابها الكتاب ويعملون على استرضائها وتوجه الحكام والزعماء الاتجاه الذى يحبه أفراد الشعب ويرتضونه .

أين نحن من هذا اليوم وأين رأينا العام من هذه القوة التى للرأى العام .
الحق أننا بعيدون عنه فليس فى مصر رأى عام بالوصف الذى وصفته لك ولا اعتبار للرأى العام لأنه لا قوة له ، لأنه غير متكون رغم توافر عناصره لأنه متحلل غير متماسك الأجزاء .

فى أمريكا رأى عام يحترمه ويحسب حسابه أصحاب الصحف رغم قوتهم وثروتهم وذيوع صحفهم لأنهم يعلمون أن قوتهم وثروتهم وذيوع صحفهم كلها مستمدة من الرأى العام الذى يصلهم كل يوم فى سيل جارف من الرسائل .

هناك كتّاب اذا كتب الواحد منهم دفعت له الصحيفة التى تظفر بكتابته أجرا لا تتصوره، هناك كتّاب ثمن الكلمة الواحدة مما يكتبون ريال، وهنا ١٠٠ كلمة لأشهر كاتب لا يحصل منها على ربع ريال ، ذلك ليس اسرافا من أصحاب الصحف ولكن أصحاب الصحف يعلمون أن الرأى العام يتتبع كتابة ذلك الكاتب فالصحيفة التى تنشر كتابته تصل الى كل يد وهذا ما يطلبه صاحب الصحيفة .

هناك يكتب القراء للكتاب فيعلم أصحاب الصحف أى الكتاب أحب الى الرأى العام فينشرون كتابته ويدفعون لها ثمنا باهظا ولا يجسرون على حجبه عن الرأى العام ولا يملكون أن يقصوه عنهم ولو أرادوا .

أما هنا فقد يحب القراء كتابة كاتب ناشيء ويتبعونها فاذا بها تختفى واذا بالكاتب يختفى لأنه وجد إعراضا من صاحب الصحيفة لأنه لا يعجبه ما يكتب أو لا يعجبه أسلوبه .

ولو كان ذلك الكاتب تلق من القراء ما يتلق أمثاله فى أميركا من رسائل لعلم صاحب الصحيفة أن صاحبه الذى لم يعجبه أسلوبه محبوب من الرأى العام فلم يجسر على إبعاده رغم أن أسلوبه لا يروقه، الرأى العام هناك سلطان يسير الصحافة والاذاعة ، أما هنا فالصحافة تسير الرأى العام وتنشر ما تحب على أنه الرأى العام والرأى العام براء منه فى بعض الأحيان.

أنت صاحب النفوذ الأعلى فى المجتمع لو أردت أن تخلق نفوذك لا من العدم لأنه موجود فعلا ولكن من الهيولى التى يسبح فيها كما كانت ذرة الكهرباء تسبح قبل أن تتحد مع مثيلاتها وتكون تيار الكهرباء .

أكتب رأيك وأرسله لمن يعجبك فى كتابة رأى جديد أو فكرة جديدة واكتب للاذاعة ماترى فيمن تسمع، واكتب للصحف بماترى فيما تقرأ، وادع أصدقاءك للكتابة مثلك تساهم فى انشاء الرأى العام فى مصر فلا يليق بأمة فيها من المتعلمين ما فى مصر أن لا يكون فيها رأى عام .

ترى فى كل مجتمع خاص رأيا للمجتمعين يتبادلونه يبدو فى مناقشاتهم فى القهوة وفى المنزل وفى الترام وفى المكتب ، ولكن الرأى العام مع ذلك غير موجود لأن هذه الآراء لا تتجمع فى الجهات التى يجب أن تدركها وتعلم بوجودها .

هذا نقص فى مصر لعله أساس كل ما فيها مما نشكو منه ولو أراد الله وأردنا لقضينا بدقائق قليلة وملايم قليلة على هذا النقص قضاء لا نحسه بعده يوم يصبح الرأى العام قوة يحسب حسابها من تحدثه نفسه بايجاد شيء مما يشكو منه الناس لأن الرسائل التى تنصب على ذلك النقص كفيلة بأن ترعب ذلك الشخص لأنها تريه أن الرأى العام قد تحول عليه وهاجمه وعند ذلك يكون الرأى العام هو القوة التى يحسب حسابها فيكون من الشعب كالضمير الحساس من الانسان يصرفه عن كل ما لا يليق .

ساهم فى تكوين الرأى العام تساهم فى ايجاد القوة التى تحمى كل نظام والتى تقضى على كل نقص واكتب من اليوم رأيك فى ماتحب وفيما تكره ولا تهمل رأيك فان أهملته فالناس أحق أن يهملوه .

عريان يوسف سعد